

هل عندنا فتيات صالحات للزواج ؟ !

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

كثيرا ما يتساءل الرجال في مصر، الأدباء منهم واثادبون (هل عندنا فتيات صالحات للزواج ؟) ويتخذون من أمثال هذا السؤال وغيره مادة لكافة المقالات وحشو الكتب ، ومع ذلك لم نسمعهم يتساءلون سره واحدة عما إذا كان عندنا رجال يصلحون للزواج أم لا ؛ وهذا لأن أنانية الرجل تأتي عليه دائما أن ينظر الى عيوبه وأخطائه بنفس العين المجردة التي ينظر بها الى المرأة .

ولو تعمقنا في نفسية هؤلاء الكتاب الذين يتددون بالمرأة المصرية المثقفة ويقررون عدم صلاحيتها كزوجة وأم متناسين أن عيوبها من صديعهم ، لو تعمقنا في نفسيتهم لوجدناهم يؤمنون جيدا برسالتها في الحياة ولكنهم يتعالطون أنفسهم كأن سبق وقلت في مقالى (هل للفنان أن يتزوج ؟) ليتنصروا لأفكارهم الخاطئة ومبادئهم العرجاء ، ولكن الحقيقة التي يخفونها ولا ينكرها أحد، هى أن المرأة المصرية أصلح الزوجات، وإن كانت المتعلمة تمتاز عن الباحلة في تلك الصلاحية ، لأنه كلما ازدادت ثقافة المرأة كانت أصلح لإدارة شؤون المنزل . فالمعرفة الكاملة تثير أماءها حقائق الحياة فتعرف حقوقها وتلم بواجباتها .

وليس هناك أى حقيقة في قول من يقول بأن المرأة كلها تبجرت في آراء أفلاطون وأبي العلاء كما نسبت وظيفتها كزوجة وأم . ولا شك أن هذه الآراء لا يقولها إلا رجل يعيش في عزلة عن العالم الحديث منذ عشرات السنين ، وإلا ما كان يخرج علينا بدليل ملموس على أنه يفكر بعقاية القرون الوسطى ، مع أن الحقائق الثابتة تؤكد لنا دائما أن الفنان يعيش في المستقبل ؛ بل أن عقله يسبق عمره بمئات السنين إن لم يكن بالوفها، كي يخلق للعالم فنا جديدا يظل حيا خالدا على مر الدهور .

ويستطيع كل من يتهم المرأة المتعلمة بعدم صلاحيتها كزوجة وأم أن يتصور ما يرسم على شفتى كل امرأة مثقفة هائثة في عشنا المتزلى الجميل من بسمة متحدية إذا ما قرأت في أوقات فراغها بعض تلك الأفكار الخيالية العتيقة .

ويستطيع أيضا أن يرى تلك الالبتسامة على شفتى بحضرة المربية الفاضلة السيدة إنصاف سرى التي أخرجت للأمة المصرية آلافا من الفتيات الصالحات . تلك المربية الجلييلة التي

كانت لنا ونحن في مرحلة التعليم الثانوي ، وقت أن كانت ناظرة لمدرسة الأميرة فوزية ، أما حازمة لا تعرف اللين أو المواربة ، وما زلت أذكر كيف كانت تخشا بلغة الأمر بضرورة التحاقنا جميعا بقسم التدبير المنزلي الخاص بالمدرسة وقولها الدائم (اني غاضبة على كل فتاة لا تدخل قسم التدبير المنزلي) ولا يستطيع القارئ أن يتصور معنى غضب المربية الجليلة .
وليس التدبير المنزلي هو كل شيء ، فقد كانت تاتي علينا في محاضراتها الصباحية دروسا اجتماعية وعظات نافعة تهدف بها دائما الى إيراد الالوطن كأهيات صالحات . ولم يكن اهتمامها قاصرا على وجودنا داخل المدرسة بل أن اهتمامها خارجها كان أجل وأعظم ، فقد كان لأوليا . أمورنا عندها زيارات متتابعة كلها بقصد حثهم على مراقبة أعمالها ، والابتعاد بنا عما يشوه أخلاقنا ، حتى أنني لم أنس بعد كيف كانت والدتي تقوم بعمليات تفتيش دائمة بين كتيبي ودفاتري خشية أن أكون قد خيأت بينها إحدى المجلات الأسبوعية أو الروايات الهزلية . واستمرت أدامها الله على عاداتها هذه أكثر عمر دراستي .

وكانت تلك القيود تضايقتني ونزلت نفسي ، ولكن ها أنذا وقد بدأ عقلي يدخل في طور النضوج ، وقد رأيت بعيني كيف تعنى بعض المجلات بنشر خبر مشادة بين مطربتين أو خبر شراء الراقصة فلانة خاتما ذهبيا ، أتساءل لماذا لا تكون كل المجلات مثالية تترفع عن الإسفاف والانعطاط الخلق حتى تعنى كل أسرة بجمعها لزيادة ثقافة أولادها وبناتها ؟

واندع الاجابة على هذا السؤال لأصحاب الصحف والمجلات ؛ ونعود إلى موضوعنا فتساءل : كم من الأسر كوتها تلك الأثرف العديدة من الفتيات المحفوظات اللاتي كن تحت رعاية المربية الجليلة السيدة إنصاف سرى ؟ لاشك أنها كثير وكثير . وان كان هذا لايعني أنني أقتصر على تفضيل مدرسة الأميرة فوزية على غيرها ، فلا شك أن هذا النظام يسرى الآن في جميع مدارسنا المصرية التي أصبحت براجمها القوية تنفق أمام كل ناقد ورقيب . ولكنني أتكلم عنها كحقيقة مجردة لمستأ بذاتي كي أجابه بها أولئك الذين يهتمون المرأة المتعلمة بعدم اهتمامها بشؤون المنزل .

ولا يوجد دليل واحد على أن فتيات الجامعات لايعرفن الا التشبه بالرجال وإلا كتب "برنارد شو" و"فريدريك نيتشه" ، فها هي بيوت فتياتنا المصريات المنققات تلي عن أن المرأة المصرية المثقفة قد أمكنها أن تضفي على منزلها كل ما لمسته في العلم من فن ، وما تذوقته بفضله من رقة وجمال .

وأدباؤنا أنفسهم لهم آراء متناقضة في هذا الصدد ، فبينما يقول بعضهم في كتاب له " أن القول بأن المرأة للبيت لا لمزاحمة الرجل لا يحول مطقا دون تنقيف المرأة ثقيفا تاما لتكون زينة البيت وأستاذ الطبل ، ومعلم الجيل " وفي مكان آخر من الكتاب نفسه يعود

فيأقضى قوله ويذكر أن "نخريجات الجامعة يحذقن تقليد الرجل في جهله بشؤون البيت ومعرفته بأراء أفلاطون وأبي العلاء ولا يعرفن كيف تقلى بيضة ، فاذا مرض الطباخ أو نخرج ، تغذى الزوج بزبدة أفكار أفلاطون ."

والمرأة ترقب كل هذه المتناقضات بهدوء وسكينة وتنظر إلى المعتدين عليها الغامطين لحقوقها نظرة الأم الحنون إلى طفلها الشقي العابت . وهي في الراقع واثقة من سمو مكاتبا في هذه الحياة ، مقتنعة بأن عليها يتوقف توجيه الأمم ورفعتها وبأن رسالتها للجمع رسالة سامية تملو في بعض الأحيان على رسالتها كزوجة .

كإان من الكآاب من يعيون على المرأة تشبهاها "بكلوديت كوابر" و"تبي جرابل" وقد أغفلوا أمر تشبه الرجل بروبرت تايلور والمرحوم رودولف فالشتينو ؟

ألم تخالق الرشافة والناثق لآراة كما خلقت الخشونة والنقشف للرجل ؟

ان للمرأة أنوثتها وللرجل رجولته ، ولا حاجة بنا لشرح ما بين الكلمتين من فرق ، فلكل منهما وقع في الأذن له مدلوله ومعناه .

وإني أؤكد لكل شاب يحاول أن يشوه من جمال رجولته بما يصطنعه من نعومة وطراوة بأن المرأة لا يمكن أن تشمر نحو أمثاله إلا بالاحترقار والاشتمزاز ، وأنه لا يستمويهيا في الرجل إلا خشونته وكآل رجولته .

ولا يفوتخ هنا أن أساءل عما إذا كان يصلح لآةآيام بأعباء أسرة وتمثيل دور الأب من تراه بأعيننا في صالونات التجميل ينسقل أظفاره ، ويقوم بعمليات "البرمانانت" و"الفريزية" لشعره اللامع كى يتناسق على وجهه المسوخ ؟

أو ذلك الذى لايشعر بالجلل وهو يتمسح بالسيدات على محطات الترام وفي عرض الطريق بينا رائحة "الماماريه" و"الجاردان سيكريه" تفوح من وجهه وثيابه ؟

أو ذلك المخنث الذى يسير متأودا وهو يلوك في فمه أغنية تافهة مثل تلك الأغاني المبتذلة الرخيصة التى تعنى بحاربها مجلة الشؤون الاجتماعية ؟

أليس فى كل هذا الذى تراه المرأة من أشباه الرجال هؤلاء دافعا قويا لها على زيادة تبرجها والاراف فى زينتها حتى يمكنها أن تنقف أمام مزاحمها الجرىء الذى تراه قد مسخ رجولته تشبها بها ؟

إن المرأة لا تفعل فى الحقيقة شيئا غير ما تمليه عليها حمايتها لأنوثتها أمام عدوان بعض الرجال وطغيانهم على حقوقها .

فليكن كل الرجال رجالا ، تكن كل النساء ملائكة . ليعش كل منهم في حدود وظيفته المقدسة ، قسستقيم الأخلاق ، ويمتحن الفساد ، وتبقى الانبياء .

وليعلم كل من لا هم لهم إلا شن الحملات على المرأة المصرية وانتقادها ، بأنه قد آن لها أن تدافع عن نفسها ، وتثبت للمالم فضائها وسمو مكاتها . وأنها رغم كل ناقد ربة منزل موفقة تجيد تدبير المنزل ، وتدرك تماما مسئولية الأسرة ، كما استطاعت أن تجيد صوغ الشعر ومختلف الفنون .

ان من لا يعترف للمرأة بذلك فهو دون شك لم يلمس الحياة في البيوتات المصرية الحديثة ، وإلا فهو يعنى بقوله وانتقاداته أولئك المدعيات اللاتي لم ينان من التعليم إلا الفشور ، وهن دون شك لا يصلحن لأن يكن أساسا للحكم على كل الفتيات المتعلمات . ومن حسن الحظ أن تلك الفئة قد زالت تقريبا برقى مستوى التعليم في مصر ، وتعديل برامجها بما يتفق وروح العصر الحديث .

ولم تفرد مصر وحدها بهذه الفئة القليلة من أشباه المتعلمات ، فدوتنا مؤلف الكاتبة الانجليزية "الميس هامان" الذي تتكلم فيه عن المرأة الانجليزية وتذكر أن الفتاة "منهن كانت فيما مضى تخرج من المدرسة وهي جاهلة كل الجهل بمسؤولية الأسرة وشؤونها ، وتعتمد على الخدم في العناية بأمر المنزل وتحمل تبعاته" .

لقد تصادف أن زرت منذ بضعة أيام منزل إحدى زميلاتي ، وكانت قد تخرجت معي وتزوجت من زوج يمانلها ثقافة وميولا . وما أن دخلت منزلها حتى حسبت أنني في جنة الفردوس .

لقد زينت صالونها بلوحات "رافاييل" و "بوتشالي" و "ماجوزيللي" وفيرهم من كبار الفنانين العالميين ، وكلها تنطق بسلامة ذوقها في اختيار أوضاعها وانسجام ألوانها ، وجمال فنها . وخصصت غرفة للكتابة حوت الكثير من الكتب العربية والغربية ، القديم منها والحديث ، ولما تصفحت أحدها رأيت الزوج والزوجة "مهمشين" على الكتاب بما عن لهما من تعليقات على آراء المؤلف ، فأدركت انهما يشتركان سويا في الفكر والعاطفة .

عندئذ تذكرت كلمة الكاتب الكبير الذي قال "إن اليوم الذي تعنى فيه المصرية باقتناء لوحة زيتية صغيرة أو "اسكس" بسيط ينم عن ذوق ، تزين به جدار منزلها ، هو اليوم الذي يزدهر فيه عندنا التصوير . واليوم الذي تهتم فيه المصرية بشراء نسخة من كل كتاب للمؤلف الذي تفضله هو اليوم الذي يرق فيه عندنا الفن والأدب" .

ليطمئن بال الكاتب الكبير وايثق أننا قد خطونا قدما إلى المدنية الصحيحة ونحو الفن الرفيع، لقد تعلمت الفتاة المصرية وتهذبت، ومع ذلك فهي لم تزال مغبونة بين المجتمع، وكان ثقافتها جرم كبير اقترفته في حق الرجل .

حقا لقد حارت المرأة في العمل على إرضاء الرجل . فهي إذا ظلت جاهلة، وماها الرجل بالرجعية والجمود ونقر منها واختار الاجنبية بدلا عنها . وهو لن يعدم حجة يبرر بها هذا العمل .

أما إذا تعلمت وثقفت وتهذبت، واكتسبت بالمعرفة خبرة تنفعها في إدارة بيتها وتربية أولادها، وماها الرجل بأنها لا تعرف كيف تدبر أمر المنزل، وأنها تطعمه زبدة أفكار أفلاطون، وضلع أينشتين، وسلاطة جى دى موباسان .

لقد جرتنا مع الرجل واحترار هو نفسه في أى التهم يختار ليكذف بها المرأة المصرية .

ليفهم الرجل جيدا أن المرأة هي أساس الكون، وأن عليها تتوقف سعادة الأسرة، وأنها هي رمز تقدم الأمم .

إنهم يرمون المرأة بأنها لا تقول كلمة الحق . فمتى يقول الرجال كلمة الحق . الكلمة التي قالها جان جاك روسو "الرجال من صنع النساء . فإذا أردتم رجالا عظاما، فاعلموا المرأة ما هي عظمة النفس، وما هي العنقيلة" .

هي كلمة حق صراح، فمتى يقولها من لا هم لهم إلا نقد أعمال المرأة المصرية وغمط حقوقها ؟

زينب محمد حسين